جدلية الذوات في الخطاب العلوي
قراءة إنسانية

The selves dialectic in Imam Ali (peace be upon him)
Humanitarian readin

أ. م. د. حازم طارش حاتم
كلية الإمام الكاظم (عليه السلام)
للعلوم الإسلامية الجامعة

Dr. Hazem Tarash Hatem, Associate professor,
Imam Kadhim (peace be upon him)
university college of Islamic sciences

ملخص البحث

يسعى البحث إلى الكشف عن إنسانية الإنسان في الخطاب العلوي من زاوية طرفي الخطاب؛ لأنَّ الخطاب العلوي خطاب قيمي تقويمي، وزاوية النظر تخلق تعارضاً قيمياً، وَلَّد هذا التعارض جدلاً قيمياً، كشفَ عن المنظومة المعرفية لطرفي الخطاب، وهذا التجاذب في القيم المتناقضة، مَثَّلَ صورةً من صور الجدل، فضلاً عن صورة الجدل في الذات الواحدة التي تشكلت عنها ذاتاً أخرى، وهذا الانفصال كان بسبب تغاير المواقف التي تستدعي ثبات القيم مع تغير المواقف، فالمبادئ المعلنة قد لا تجد لها مكاناً في التطبيق؛ لأن المبادئ لا ترتكز على ثوابت معرفية أخذت حَيِّزها في النفس، بل أريد بها منافع دنيوية، وهذا مما استظهر نزاعاً في الذات الواحدة، صورة نزاع القيم المعلنة، وتخاذل القيم في المواقف.

Abstract

The research seeks to reveal for humanity of man in Imam Ali speech from the perspective of the both sides of the speech because Imam Ali speech is a correctional valuable speech and the perspective creates a valuable incompatibility. This incompatibility generated a valuable contention detect the knowledge system and this tension between the contradictory values represents a pictures from contention pictures as well as the contention picture in one self which forms from itself another self and this separation was because of variability of situations which require stability of values with situation changing. The principles enunciated don't be applied because the principles don't based on the constants knowledge take its place in the soul but intended to worldly benefits and this leads to conflict in the one self the picture of conflict of principles enunciated and inaction the values in situation.

توطئة

كشف أصول الخطاب العلوي في ضوء نظرية التلقي، ترسم لنا أبعاد نظرية التواصل التي يحققها الخطاب في ضوء ملابسات السياق الثقافي الخارجي، الذي تتغير به أصول المخاطبات؛ لأن مقتضيات الخطاب تستدعي ذلك، فظروف نشأة الخطاب، تحكي أهداف الخطاب، والغايات التي يرمي إليها، ولاسيما أن الخطابات وظيفتها الأساسية التأثير في المتلقي، وهنا يأشر نقطة الخلاف بين طرفي الخطاب في القضية المطروحة؛ ولاسيما أن الخطاب العلوي خطاب كوني، وأن تمثل بشكلها الخاص في مخاطباته، إلا أنه محمولاته الإنسانية ذات الأبعاد الإرشادية، والأساليب الإقناعية الحجاجية، كشفت عن جدلية الذوات المعبئة بالقيم الإنسانية غير أن هذه المفاهيم الإنسانية تتغاير بالمفهوم، فضلاً عن المنطلقات التي تأسس هذه المفاهيم وبواعثها التطبيقية التي تشكلت في الخطاب العلوي.

فالبحث يسعى إلى الكشف عن هذه المفاهيم الإنسانية بشقيها المتولدة من طرفي الخطاب، التي تمثل التناقض في الحد والمفهوم؛ لأن التغاير تغاير بالمنطلقات والركائز، فضلاً عن الفهم، والمنطلقات الإنسانية التي يدفع بها الإمام علي (عليه السلام) هي منطلقات أساسها القرآن تنشد التكامل والرقي للإنسان، وتسعى إلى تجنبه المهالك، وبهذا الوعي تشكل الخطاب العلوي، وهو بذلك يجادل المفاهيم الإنسانية الواطئة التي تشكلت في نفس المتلقي، وحكيت سلوكه، والخطاب العلوي يحكي عملية الجذب بين المفاهيم، ولاسيما أن الخطاب العلوي يستعرض هذه المفاهيم على وفق

جدلية المواقف بين أطراف الخطاب التي شكلت الخط البياني في استظهار القيم النبيلة التي تستدعيها المواقف، وهذه المواقف بالمقابل تظهر قيم تضاد قيم النبل، وهذا التقابل بين القيم يحكي الصور الإنسانية، المغايرة في المفهوم بين الذوات المتحاورة، والبحث يكشف عن مسوغات حركة الإنسان- المصلحة- التي تشكل المفهوم الإنساني.

المطلب الأول

قيم الذوات المتجادلة وأبعادها الإنسانية

المنظور الإنساني منظور قيمي، وهذه القيم متنوعة تُسم في بناء إنسانية الإنسان، على هذا الأساس أن التجادل بين الذوات جدال قيمي، بواعثه المنظومة المعرفية التي تستند إليها الذات المتجادلة، وهذا ما عكسه الخطاب العلوي القائم على الدعوة الإنسانية قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «**أما بعد، فإنَّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة، وتعقب الندامة، قد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر! فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة، والمنابذين العُصاة، حتّى ارتاب الناصح بنصحه، وضنّ الزند بقدح، فكنتُ أنا وإيّاكم كما قال أخو هوازن:**

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى

فلم تستبيحوا النصح إلا ضحى»[1].

يستهل أمير المؤمنين (عليه السلام) خطابه بمقدمة «**كلية كبرى**»، يبني عليها استدلاله الحجاجي الإقناعي من أجل إيقاع الأثر في السامع، فضلاً عن ذلك توليد قوة إنجازية تمثل فعلاً غير مباشر إزاء «**الناصح**»، وهو القبول والرضا، فقوله (عليه السلام) «**إنَّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب**

الندامة» (**مقدمة كبرى**)، ثم ينتقل من هذه الكبرى إلى«**المقدمة الصغرى**»:

١. **كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري.**

٢. **ونخلت لكم مخزون رأيي.**

٣. **لو كان يطاع لقصير أمر.**

وهنا يستظهر الخطاب العلوي القيم الإنسانية التي تمثلت في «**النصح**»، الذي يستبطن الخير والحب للآخرين، لاسيما أن «**الناصح**» عالم ومجرب ومشفق، ويستلزم قبول قوله، والعمل بنصيحته، غير أن جدلية القيم تظهر في المخالفة «**الناصح**»؛ لأنهم «**مخالفين**»و«**جفاة**»، و«**منابذين**»و«**عصاة**»، فصار حاله حال «قصير بن سعد اللخمي» مولى جذيمة الأبرش ملك على شاطئ الفرات، وكانت الزبّاء ملكة الجزيرة، وكانت من أهل باجرمي، وكانت تتكلم العربية، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها، كتبت إليه أنها لم تجد مُلك النساء إلا قبيحاً في السماع وضعفاً في السلطان، وأنها لم تجد لملكها موضعاً ولا لنفسها كفؤاً غيرك فاقبل إليّ لأجمع ملكي إلى ملكك، وأصل بلادي ببلادك وتقلد أمري مع أمرك تريد بذلك الغدر، فلما أتى كتابها جمع جذيمة أهل الحجا والرأي من ثقاته، فعرض عليهم ما دعته إليه، فاجتمع رأيهم على أن يسير إليها فيستولي على ملكها، وكان فيهم قصير فخالفهم فيما أشاروا به، وقال: رأي فاتر وغدر حاضر، فلم يوافق جذيمة، فهلك[٢]، واستحضار الذاكرة التاريخية في ذهن المتلقي يولد تكثيفاً في الدلالات، فضلاً عن القيم المتقابلة التي شكلت جدلية في المنظومة المعرفية لطرفي الخطاب، والأمام علي (عليه السلام) يستظهر حاله مع القوم «**فكنتُ أنا وإيّاكم كما قال أخو هوازن:**

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى
فلم تستبيحوا النصح إلا ضحى».

وهذا الاستظهار هو استظهار للقيم التي استدعاها المقام، ومظاهر هذا الاستدعاء «**أنا**» و«**إياكم**» في ذلك بعد أشاري يأشر المقابلة بين القيم التي شكلت صراعاً بين المتخاطبين، وهذا ما كان واضحاً في الاستشهاد الشعري.

وقال (عليه السلام) في ذم المتقاعسين عن الجهاد: «**يا أشباه الرجال ولا رجال! حُلُوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال لو وددتُ أني لم أراكم، ولم أعرفكم معرفةً. والله. جرّت ندماً، وأعقبت سدماً قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التّهام أنفاساً، وأفسدتم علي رأيّي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب**»[٣].

يستفتح أمير المؤمنين (عليه السلام) خطابه بالنداء، ويستعمل أداة «**يا**» التي تستعمل للقريب والبعيد، ودلالتها في الخطاب للبعيد، لغاية حجاجية يريد الكشف عن حالة التذمر وعدم القبول على القوم ثم يأخذ بالتعريف بهم:

أشباه الرجال ولا رجال!
حُلُوم الأطفال.
وعقول ربّات الحجال.

والقيمة التي يظهرها الخطاب العلوي «**فساد الرأي**» و«**العصيان**» و«**الخذلان**»، التي هي نتاج عدم الدراية والمعرفة، التي جادلت قيم المعرفة والدراية بشؤون الحرب التي تكفل للإنسان إنسانيته وتحافظ عليها التي تمثلت بالقيم التي عرضها أمير المؤمنين (عليه السلام)، التي تبين ما على الإنسان القيام به إلاّ أن قيم «**الخوف**» و«**حب الدنيا**» أذهبت بالإنسان على خلاف ما يقتضيه

العقل والعلم والمعرفة، مما أفقده إنسانيته، وهذا الصراع القيمي يتضح بعبارة الخطاب العلوي «**وددتُ أني لم أراكم، ولم أعرفكم معرفةً. والله، ... ، قاتلكم الله!**»، وأمير المؤمنين (عليه السلام) ينأى بنفسه عن هؤلاء القوم الذين فقدوا إنسانيتهم، بفقدهم القيم، التي أكدها بقول قريش: «**إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب**».

وقال (عليه السلام) لأصحابه عندما عزم على المسير إلى الخوارج «**أيّها النّاس، إيّاكم وتعلّم النجوم إلاّ ما يُهتدى به في برّ أو بحر، فإنّها تدعو إلى الكهانة، والمُنجّمُ، كالكاهن، والكاهنُ كالسّاحر، والسّاحر كالكافر، والكافر في النار سيروا على اسم الله**»[٤].

مقتضيات الخطاب استدعت من المتكلم التنبيه «**أيّها**»، فضلاً عن التحذير «**إياكم**»؛ لأن القيمة التي يعرضها الخطاب قيمة توحيدية أساسية تمثل ركيزة أساسية في معتقد الإنسان إلا وهي «**التوكل على الله**»، وهذا ما أثبته الخطاب في قوله «**سيروا على اسم الله**»، وهو بذلك يثبت قيم للإنسان أبعادها تكاملية تتشكل في بناء الجانب الروحي؛ لهذا جاء التنبيه والتحذير من فقدان هذه القيمة بإتباع «**تعلم النجوم**» التي هي باب إلى «**الكهانة**»، وهذه القيمة تحط من قيمة الإنسان؛ لهذا نجد بأن الخطاب تشكل بشكل استدلالي:

الكاهن كالساحر «مقدمة كبرى»

الساحر كافر «مقدمة صغرى»

الكافر في النار «النتيجة»

وهذا التقابل القيمي بين «مدعي الغيب» والذي «يتوكل على الله»، يولد بعداً إنجازياً «اتركوا الكهانة»، وهنا تقع الجدلية القيم التي تمثل الأبعاد المعرفية لطرفي الخطاب.

وفي خطبته (عليه السلام) التي يستنفر

الناس فيها لمحاربة أهل الشام من قول :«**أُفٍّ لكم! لقد سئمت عتابكم! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا؟ وبالذل من العز خلفا؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكهم كأنهم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة، يرتج عليكم حواري فتعمهون، وكأنّ قلوبكم مأنوسة فأنتم لا تعقلون**»[٥].

في هذا النص توبيخ وضجر من أعمالهم وأفعالهم فقوله(عليه السلام) «**أُفٍّ لكم!**» أي تباً، واللام في «**لكم**» لبيان المتضجر لأجله[٦]، ثم يعول على طاقة الاستفهام الإقناعية التي في الغالب على الضمني لا على الصريح، وهذا الأمر أهتم به ديكرو في «نظرية المساءلة» حيث بينّ أنّ الافتراضات الضمنية هي التي تجعل منه أسلوباً حجاجاً؛ لأن الإجابة مهما كان نوعها لابد من أن تسلم بتلك الافتراضات[٧]، فالافتراض في الخطاب يقتضي «**الإنكار**» وهذا يمثل الحجة؛ لأن الاستفهام خرج من دلالته الأصلية طلب الجواب إلى دلالته المجازية.

أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا؟.

وبالذل من العز خلفا؟.

وهنا تتضح القيم المتضادة المتجادلة بين «**الحياة الدنيا**» و«**الحياة الآخرة**»، وبين «**الذل**» و«**العز**»، التي ترسم الخط التكاملي في بناء الدائرة الإنسانية للإنسان المؤمن، بخلاف الذين اتخذوا القيم المذمومة التي ترسم مستوى الهبوط الإنساني؛ لذا شبههم تشبيهاً مركباً، فمرة بأنّ أعينهم تدور حيرة وتردداً وخوفاً من أحد أمرين: إما مخالفة دعوته للجهاد، أو الإقدام على الموت، وفي كلا الأمرين خطر، ثم شبه حالتهم تلك في دوران أعينهم وحيرتهم بحال المغمور في سكرات الموت، الساهي

فيها عن حاضر أحواله المشغول بما يجده من الألم، وهذا التشبية التمثيلي مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[٨].

وقال (عليه السلام) في توبيخ أصحابه من أهل الكوفة على التباطؤ عن نصرة الحق: «**يا أهل الكوفة، ...، يا أشباه الإبل غاب عنها رُعاتُها! كُلّما جمعت من جانب تفرقت من آخر، ...، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قُبلها، إنّي لعلى بينة من ربي، ومنهاج من نبيي، وإنّي لعلى الطريق الواضح ألقطهُ لقطاً**»[٩].

المقتضى القولي استلزم من المخاطِب استخدام النداء، لغرض حجاجي تنبي المخاطَب ولفت انتباهه بما يجب عليه، فالمضمون القضوي للفعل القولي بأن المخاطبين «**ليس رجال**»، فالخطاب يحمل دلالة النفي والتقرير بحسب تصنيف «سيرل» تكمن قوته الإنجازية في إعلان الحجة على المخاطَب[١٠]، بعدما استعمل الاسم الصريح، ثم غاير بعد ذلك بقوله: «**يا أشباه الرجال**»، وهذا التغاير ما هو إلا تغاير في القيمة، والذي تمثل في سلوكه الخارجي في «**التجمع**» و«**التفرق**»، وهذه الجدلية في القيم كانت كمقدمة أولى لتقديم الحجة على المخاطَب، وإلزامه بها مستعيناً بالصورة التشبيهية بيان انفراج الصحابة عن ابن أبي طالب (عليه السلام) في المعركة، بانفراج المرأة عند الولادة، وفي ذلك كناية عن العجز والدناءة في العمل[١١]، وهذا مما ولد فعلاً إنجازياً توبيخياً، ثم استعمل الضمير الاشاري في موضعين:

١. **إنّي لعلى بينة من ربي، ومنهاج من نبيي.**

٢. **وإنّي لعلى الطريق الواضح**

ألقطُهُ لقطاً.

وهنا جدلية القيم التي تظهر، لاسيما في الاستعمال البعد الاشاري الذي يحيل إلى ذات أخرى، تتقاطع معها في القيم[١٢]، ويرمي القول إلى إلزام المخاطِب بالحجة التي مفادها:

بما أني لعلى بينة من ربي، ومنهاج من نبيي، وأني على الطريق يجب أن لا تتفرقوا عني؛ لأن في ذلك خسران؛ لأنهم فقدوا عقلاً مدبراً ورئيساً بارزاً، فشبههم بالانفراج، وبما أنّ التمثيل يقوم على أساس المشابهة بين جمهور المسلمين بين العلاقات، فإنّ علاقة جمهور المسلمين بالإمام علي (عليه السلام) علاقة تتسم بالخوف من الجهاد[١٣].

وقوله (عليه السلام) في ذم المتقاعسين عن القتال: «**دعوتكم إلى نصر إخوانكم، فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر، ثم خرج إليّ منكم جنيد، متذائب ضعيف ﴿كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾**[١٤]»[١٥].

تقابل القيم في الصورة التشبيهية بين الدعوة إلى «**النصرة**» و«**التخاذل**» من قبل القوم، تمثل في حالهم بحال الجمل المصاب بالقرعة الذي يردد صوتاً قبيحاً، وبحال البعير الهزيل المعقور عندما ينهض متثاقلاً، ويسير متثاقلاً، ثم يوظف النص القرآني في بيان حال القلة التي خرجوا بها إلى الحرب، وفي هذا دليل على الضعف والتخاذل، وهذا التجاذب بين القيم أخذ يشكل ملامح الإنسانية لدى طرفي الخطاب في ضوء المباني المعرفية التي يرتكز كلا الطرفين، لاسيما أن المتكلم مبانيه قرآنية.

ولجوء المتكلم إلى «**القانون الإخباري**» من المكونات الأساسية في عملية التواصل، وعملية تزويد المتلقي بالمعلومات تجعل هذه المعلومات حجة على المتلقي[١٦]:

فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر.

وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر.

ثم خرج إليّ منكم جنيد، متذائب ضعيف.

وفي قوله «**إخوانكم**» ترغيباً لهم على القتال، وبث الحمية في نفوسهم، ومن فاعلية الخطاب العلوي تضمين النص القرآني على سبيل صورة المشبه به، وهذه سمة أسلوبية للإمام (عليه السلام)[17].

المطلب الثاني
جدلية التقابل الإنساني في الخطاب العلوي

السياق الخارجي هو الحاكم في رسم أسلوبية الخطاب، لاسيما إذا كان غرض المخاطِب أيقاع الأثر، فضلاً عن سرعة الإنجاز، وحتى يكون ذلك أتخذ المخاطِب «التقابل» مسلكاً لتوليد التفاعل المعرفي الإنساني؛ لأن التقابل «تضاد» في المعاني[18]، قال ابن الأثير: (واعلم أنّ في تقابل المعاني باباً عجيب الأمر، يحتاج إلى فضل تأمّل، وزيادة نظر وتدبّر، ...، وهذا الباب ليس في علم البيان أكثر نفعاً منه، ولا أعظم فائدةً)[19].

وأسلوبية الخطاب العلوي وظفت هذا التقابل في استظهر القيم الإنسانية المتقابلة التي تحكي الأبعاد المعرفية للذوات المتحاورة التي شكلها أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطابه، فقوله: «**ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقُلبَهَا، وقلائدها ورُعُثها، ...، فلو أنّ امرأً مُسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان عندي جديراً، فيا عجباً! عجباً والله يُميتُ القلب، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يُرمى يُغار عليكم ولا تغيرون، وتغزَونَ ولا**

تعزُون، ويُعصى الله وترضون!»[٢٠].

أضحى الأخبار في ضوء «مبدأ التعاون» وظيفة أساسية في تقليل المسافة بين المتخاطبين للوصول، لاسيما أنه ضمن وقائع وأحداث واقعية تثبت صدق مضمون الخبر:

الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة.

فينتزع حجلها وقُلبَهَا ، وقلائدها ورُعُثها.

واستعمال هذه التقنية «**الوقائع والأحداث التاريخية**» لبيان فضاعت الفعل، ووضاعة القيم ودناءتها، التي يحملونها، ثم يرتب الإمام (عليه السلام) على هذه الإحداث والوقائع حدثاً يمثل مقدار القبح «**فلو أنّ امرأً مُسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان عندي جديراً**»، وهذه المواجهة بين القيم ولدت صورة عن الهيئة التي كانوا عليها القوم، وبشاعة هذه الصورة، ومع بشاعة هذه الصورة وقباحة منظرها، التي تجسدت بأصل فعلهم التطبيقي نجد «**اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم!**»، والبدا الحق يقتضي عكس ذلك الفعل، وهذا ما يفسر وجه التعجب من قبل الإمام (عليه السلام) «**فيا عجباً! عجباً والله يُميتُ القلب**»، و« **يجلب الهم**»، لا بل توجيه القول مباشرة، وفضحهم، وفي ذلك حجة عليهم، وقطع الطريق عنهم:

حين صرتم غرضاً يُرمى يُغار عليكم ولا تغيرون.

وتُغْزَوْنَ ولَا تَغْزُونَ.

ويُعصى الله وترضون.

وهذه نتيجة في نفس الوقت صدرها الإمام (عليه السلام) في خطابه إلى المتلقي الحاضر، والغائب الكوني، وهي دعوة إلى الابتعاد «عن قبائح الأفعال» لاسيما التي تنافي الإنسانية؛ لأن الخاسر في ذلك هو الذي قام

بالفعل، وليس الذي وقع عليه الفعل.

وقال (عليه السلام) في الخوارج: «**كلمةُ حق يُراد بها باطل! نعم إنّه لا حُكم إلاّ لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لابدَّ للنّاس من أمير برٍ أو فاجرٍ يعمل في إمرته المؤمن، ويستمع فيها الكافر**»[٢١].

ارتدادات الحق على لسان المدعين، يراد منه إيهام العامة، فضلاً عن تحسين الصورة الخارجية لهم، بمعنى الحفاظ على الصورة الإنسانية الطالبة للحق، وهذه القيمة الإنسانية ثبتها الإمام(عليه السلام) «**نعم إنّه لا حُكم إلاّ لله**»، ولكن هذه الدعوة من قبل المدعين كانت باطلة؛ لأنهم لا يعملون بها، ولا يسيرون عليها، وهنا جاءت الإشكالية القيمية بين «**الإدعاء**»، و«**الواقع**»، وهذا يخلق تناقض وصراع داخلي، الكاشف عنه السلوك التطبيقي العملي الذي هو خارج «**الإدعاء**»، والمسوغ لهذه الدعوة «**لابدَّ للنّاس من أمير برٍ أو فاجرٍ**»، وهم بذلك يريدون أن يقولون بحسب القول المضمر «**لا يشترط إمامة الإمام علي(عليه السلام)**»؛ كونه عادلاً، فتداخل القيم عكس حجم الصراع فيما بين الحقيقتين الواقعية وخلافها، عاماً أن نتاج هذا الصراع الداخلي في المواقف المختلفة جعلت القيم تناقض السلوك الذي يمثل المنطلقات المعرفية للأشخاص التي تشكل جوهر القناعات، التي في ضوئها يتشكل السلوك الخارجي الذي يبتعد دائرة الإنسانية، والخطاب في طياته يستلزم فعلاً إنجازياً «التنبيه والحث على الإمساك بالحق قولاً وفعلاً».

وقال (عليه السلام): «**ما أنتم لي بثقةٍ سَجيس الليالي، وما أنتم بركنٍ يُمال بكم، ولا زوافر عزٍ يفترق إليكم. ما أنتم إلا كإبل ضلَّ عنها رُعاتها،**

فكُلَّما جُمعت من جانب انتشرت من آخر»[٢٢].

يكشف النفي في بعده التداولي عن الجوانب الإثباتية التي تحملها المحمولات الخبرية في صياغاتها المنفية، ويمكن بيان ذلك:

ما أنتم لي بثقةٍ سَجيس الليالي. ←
أنا لا أثق بكم، وأنتم ليس أهل للثقة.
وما أنتم بركنٍ يُمال بكم. ←
أنا لا اعتمد عليكم، وأنتم ليس أهل لأن يعتمد عليكم
ولا زوافر عزٍ يفترق إليكم
ما أنتم إلا كإبل ضلَّ عنها رُعاتها. ←
أنتم قوم لا تملكون عقلاً، فتفرقتم عن الحق.

كشف القناع عن القيم في الخطاب العلوي، لاسيما الخطاب الموجه إلى الناس ينصحهم إلى الطريق السديد يرسم في بعده الإجرائي دعوة إلى هذه القيم؛ كونها تشكل قيماً إنسانية، فضلاً عن أنها تكشف عن المضادات لهذه القيم التي شكلت وجهاً لوجه جدلاً قيمياً، وهذا الجدل له أبعاد حجاجية تريد تصدير خطاباً إعلامياً يعلن فيه عن «القيم الإنسانية» التي تحفظ هوية الإنسان، وترسم الملامح الحقيقية للإنسان.

وقال (عليه السلام): **«والله لا أكونُ كالضَّبع: تنام على طُول اللّدم، حتَّى يصل إليها طالبُها، ويختلها راصدها، ولكني أضرب بالمُقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المُطيع العاصي المُريب أبداً، حتّى يأتي عليَّ يومي»**[٢٣].

افتتاح الخطاب بالتوكيد بالقسم أعطى طاقة حجاجية عالية، وأنتج مفهوماً دلالياً هدم فيه الأفكار والآراء التي تشكل عالم خطاب الخصوم في صيغته: (ليس ق «قضية» ب «صادقة»)[٢٤]، والمفهوم الذي هدمه الخطاب **(لا أكونُ كالضَّبع)**، التي **(تنام على طُول اللّدم، حتَّى يصل إليها طالبُها، ويختلها راصدها)**،

وفي ذلك فعلاً انجازياً يتمثل في «أنتم كالضّبع»، وهذا يستلزم منها صفاتها «**تنام على طُول اللّدم**»، و«**يصل إليها طالبُها**»، و«**يختلها راصدها**»، وفي ذلك حجة على متلقي الخطاب الذي تمثل بهذه القيم التي تحط من قدره، والتي تبتعد عن الإنسانية؛ لهذا كانت محل النفي والاعتراض من الإمام (عليه السلام)، واستدرك مؤشراً في البعد الذاتي إلى القيم التي مثلها في «**الحق**» و«**السامع المطيع**»، وقد لجأ المتكلم إلى استعمال العامل الحجاجي «**لكن**» من أجل تقيد الإمكانات الحجاجية[٢٥]، فالقيمة الحجاجية في هذا القول تخدم نتيجة واحدة «أني ملازم للحق»، وتابع له «حتى يأتي يومي»، وهذا العامل الحجاجي أصبح عنصر توجيه، وتعزيز للخطاب[٢٦]، وبذلك تنكشف القيم الحقيقية الإنسانية التي أضحت تقابل القيم الهابطة، والتي بدورها أخذت تتجادل معها، فتولد الجدل المبني على القيم المعرفية التي تملكت الإنسان، وبرز في الجانب السلوك العملي الخارجي الذي يمثل المرآة العاكسة للمعطيات الداخلية للفرد الإنساني.

وقال (عليه السلام): «**يزعم أنّه قد بايع بيده، ولم يُبايع بقلبه، فقد أقرَّ بالبيعة، وادّعى الوليجة، فليأت عليها بأمر يُعرف، وإلا فليدخل فيما خرج منه**»[٢٧].

يستند المتكلم على تقنية «**طرائق الفصل أو الانفصال**»، وهي من التقنيات الحجاجيّة القائمة: (على كسر وحدة المفهوم بالفصل بين عناصره المتضامن بعضها مع بعض، مردّه إلى زوج الظاهر/ الواقع أو الحقيقة)[٢٨]، ولا يتسنى هذا الفصل إلاّ في العناصر التي تؤلف وحدة واحدة يتم فصلها لغايات حجاجيّة، وهدف هذا الوصل استبعاد أحد

العنصرين، ثم تأكيد العنصر المتبقي منها[٢٩]، فالزعم: ادعاء- العلم والعلم يقتضي مطابقة الواقع، وهو أنه لم يبايع بقلبه، بل بايع بيده، وهذا غير مطابق للحقيقة وانفصال عنها، والحقيقة أنه بايع، وفي ذلك جدل بين الذات الواحدة التي خالفت المفهوم من أجل الإيهام، وهي بفعلها هذا ناصرت الباطل، وتركت الحق، فالجدل الإنساني في القيم هو الذي يشكل المظهر السلوكي الخارجي، وهذا ما نجده في البيعة التي شكلت الجانب السلوكي للمفاهيم الداخلية التي على أساسها يفسر ذلك السلوك.

وقال (عليه السلام): «**والله لا يزالون حتَّى لا يدعوا لله محرماً إلاّ استحلُّوا، ولا عقداً إلاّ حلّوه، وحتّى لا يبقى بيت مدرٍ ولا وبرٍ،إلاّ دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم، وحتّى يقوم الباكيان يبكيان، باكٍ لدينه، وباكٍ يبكي لدنياه**»[٣٠].

التوكيد بالقسم يعطي طاقة حجاجية عالية، وينتج مفهوماً دلالياً يهدم فيه الأفكار والآراء التي تشكل عالم خطاب الخصوم في صيغته: (ليس ق «قضية» ب «صادقة»)[٣١]، وهو يريد به أثبات:

لا يدعوا لله محرماً إلاّ استحلُّوا.

ولا عقداً إلاّ حلّوه.

والخطاب يريد تقرير نتيجة سلوكية من هذه المقدمات إلا وهي:

١. **وحتّى لا يبقى بيت مدرٍ ولا وبرٍ،إلاّ دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم.**

٢. **وحتّى يقوم الباكيان يبكيان، باكٍ لدينه، وباكٍ يبكي لدنياه.**

فالتقابل القيمي في الخطاب العلوي يكشف عن حجم الصراع الداخلي، المبني في الأصل على الجوانب المعرفية التي تملكت الإنسان، التي تشكلت في صورتين

«**باكٍ لدينه، وباكٍ يبكي لدنياه**»، وهذا يمثل طرفي نقيض في الجوانب القيمية الإنسانية، وفلسفة الخطاب ترمي إلا بيان أحوال الناس ومسالكها إزاء المواقف الحياتية، وفيه دعوة إلى تبني القيم التي لا تناقض الإنسانية، بل التي تحقق فعلاً إنسانياً.

فالمنجز اللفظي في الخطاب العلوي يستند إلى مرتكزات أساسية لها علاقة وثيقة ببنية التكوين الفكري لذهنية الإمام(عليه السلام)، والتي لا يمكن فصلها عن المضمون القرآني[٣٢]، وكان فيها الإمام (عليه السلام) (يصدر عن رؤية كونية شاملة محاورها ثلاثة موضوعات لا انفصال بينها هي: الله والعالم والإنسان)[٣٣].

الخاتمة

تسمية الخطاب بأنه إنساني، أو توصيفه بالإنسانية قائم على أساس القيم التي يحكيها الخطاب في تضاعيف نصوصه؛ لأن القيم هي التي تحفظ كنه الإنسان، وجوهره، والخطاب العلوي يحمل الكثير من القيم؛ لأن بواعثه إرشادية توجيهيه تسعى إلى الحفاظ على الإنسان كونه قيمة عليا، وهو المخاطب في أصل الخطاب؛ لذا وقف البحث على نتائج منها:

١. أضحت المضامين الإنسانية في الخطاب العلوي أبعاداً حجاجية إقناعية، تستلزم الفعل الإنجازي من قبل المخاطَب.

٢. شكلت القيمة الإنسانية في الخطاب العلوي حجةً على متلقي الخطاب، لاسيما أن المخاطب تمثلت فيه قيم «الجبن»، والخوف، والرفض من الجهاد «مما تولد جدلاً بين القيم».

٣. كشف الخطاب عن الصراع الداخلي في الذات الواحدة، وهذا الصراع قيمي يتضح ويبان بفعل المواقف التي يتعرض لها الإنسان.

٤. التجأ الخطاب العلوي إلى تبني استراتيجيات متعددة تمثلت في أساليب متنوعة أظهرت تناقض القيم، لاسيما في السلوك الخارجي الكاشف عن الجوانب المعرفية المتبناة من قبل طرفي الخطاب.

٥. بيّن الخطاب العلوي غاياته الخطابة في ضوء القيم الإنسانية التي يطرحها، ويقلبها القيم التي تعارضها وتناقضها، لاسيما في المواقف المحرجة، وهي دعوات الجهاد والنصرة، والدفاع عن الدين.

٦. قرب الخطاب العلوي عن طريق الصور التشبيهية الكثير من الوقائع والأحداث التاريخية التي كان لها مساس في الحاضرة العربية.

٧. تضمن الخطاب العلوي الكثير من الأفعال غير المباشرة، من أجل توليد أفعال إنجازية تمثل دعوة صريحة من قبل المتكلم.

٨. الخطاب العلوي لم يبتعد عن دائرة الخطاب القرآني في الجوانب الإنسانية، بل كان النص القرآني المعضد، والساند والحاضر في أصل الخطاب، بل لا ينفك عنه.

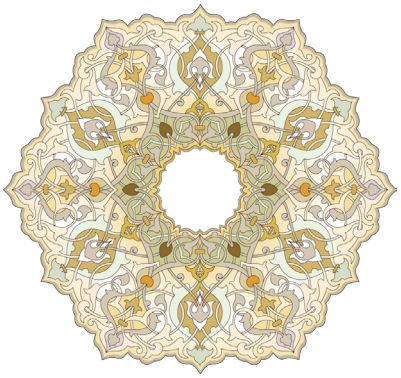

الهوامش

١. الخطبة: ٣٥.

٢. ينظر: مجمع الأمثال: أبو الفضل النيسابوري: ٢٣٤.، دار المعرفة- بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٣. الخطبة: ٢٧.

٤. الخطبة: ٧٩.

٥. الخطبة: ٣٤.

٦. ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: للطبرسي: ٧: ٨٠.

٧. ينظر: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة: لميشال ماير (بحث): ٣٩٤: ضمن (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم): إشراف حمادي صمود.

٨. سورة الأحزاب: الآية: ١٩- ٣٣.

٩. الخطبة: ٩٧.

١٠. ينظر: نظرية الفعل الكلامي: ١٢٠.

١١. ينظر: نهج البلاغة: ضبط نصه د. صبحي الصالح: ١٧٨. (الهامش).

١٢. ينظر: عن الذاتية في اللغة: إميل بنفنست: ١١٠.

١٣. ينظر: حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي إنموذجاً): د. علي عمران: ٩٤.

١٤. سورة الأنفال: الآية: ٦.

١٥. الخطبة: ٣٩.

١٦. ينظر: الحجاج في الشعر بنيته وأساليبه: د. سامية الدريدي: ١٥٠.

١٧. ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة: د. عباس علي حسين: ٢٠٧.

١٨. ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل ١٧٧.

١٩. المثل السائر: ٢: ٢٦٥.

٢٠. الخطبة: ٢٧.

٢١. الخطبة: ٤٠.

٢٢. الخطبة: ٣٤.

٢٣. الخطبة: ٦.

٢٤. ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: د. عبد الله صولة: ٢٧٠.

٢٥. ينظر: الحجاج في درس الفلسفة: ٥٤.

٢٦. ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية: د. عز الدين الناجح: ٢٥.

٢٧. الخطبة: ٨.

٢٨. الحجاج: أُطُرُه ومنطلقاته وتقنياته: (بحث): ٣٤٣، وحجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي (عليه السلام): ١٢٥.

٢٩. ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في النقد المعاصر: ١٣٢- ١٣٣.

٣٠. الخطبة: ٩٨.

٣١. ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: د. عبد الله صولة: ٢٧٠.

٣٢. ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون): د. عباس علي حسين: ٣٥٠.

٣٣. عبقرية الإمام علي: عباس محمود العقاد: ٤٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم مصدر العربية الأول.

الكتب المطبوعة

١. الأثر القرآني في نهج البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون): د. عباس علي حسين، ط١، منشورات الفجر، لبنان- بيروت، ١٤٣٠ هـ- ٢٠١٠ م.

٢. بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤م.

٣. الحجاج في البلاغة المعاصرة- بحث في النقد المعاصر: د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م.

٤. الحجاج في الشعر بنيته وأساليبه: د. سامية الدريدي، ط٢، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن- إربد، ٢٠١٢م.

٥. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: د. عبد الله صولة، ط٢، دار الفارابي- بيروت، كلية الآداب والفنون والإنسانيات منّوبة، ودار المعرفة للنشر- تونس، ٢٠٠٧ م.

٦. الحجاج في درس الفلسفة: إعداد وإنجاز خلية البحث التربوي لمادة الفلسفة بأكاديمية أنفا، (د- ط)، دار البيضاء، أفريقيا الشرق- المغرب، ٢٠٠٦ م.

٧. حجاجية الصورة الفنية في الخطاب الحربي (خطب الإمام علي إنموذجاً): د. علي عمران، (د- ط)، مطبعة دار نينوى، دمشق- سورية، ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩م.

٨. حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي(عليه السلام): د. كمال الزماني، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن- إربد، ١٠١٢ م.

٩. عبقرية الإمام علي: عباس محمود العقاد، (د- ط)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

١٠. العوامل الحجاجية في اللغة العربية: د. عز الدين الناجح، ط ١، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، ٢٠١١ م.

١١. عن الذاتية في اللغة: إميل بنفنست، ط١، دار البيضاء، أفريقيا الشرق- المغرب، ٢٠١٠ م.

١٢. مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، ط١، دار القارئ دار الكتاب العربي، لبنان- بيروت ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩ م.

١٣. مجمع الأمثال: أبو الفضل النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (ط- د) دار المعرفة، لبنان- بيروت.

١٤. نهج البلاغة: ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: د. صبحي الصالح: ط١، مطبعة الرسول، إيران- قم، ١٤٢٦ هـ.

١٥. نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الإسلامي: الأستاذ هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان- بيروت، ٢٠٠٧ م.

البحوث في الدوريات العلمية

١. البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة:

لميشال مايـر (بحـث): ضمـن (أهـم نظريـات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم): إشراف حمادي صمود، منشورات كلية الآداب- منّوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس (د- ت).

٢. الحجاج: أُطُرُه ومنطلقاته وتقنياته: (بحث): ضمن (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم): إشراف حمادي صمود، منشورات كلية الآداب- منّوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس (د- ت).